الصلة بين التصوف والفلسفة

للأستاذ فوزى عرفة

ليس فى نيتنا أن نقضى فى عجالة بالصلة بين التصوف والفلسفة وإنما نريد فقط أن نحدد الخطوط البارزة التى توجـــد أو تفصل بين الفلسفة والتصوف وحسبنا أن نقول إن التصوف والفلسفة اتجاهان إنسانيان ينبعان من ذات الإنسان وعما نتاج لعوامل عديدة تؤثر فى نفس الإنسان فتغير من نظرته إلى الحيـاة فمن وهب قدرة على التحليل والتأويل والتعليل وفطرة علمية منطقية فقد يتخذ الفلسفة بمفهومها الإسلامى دليلا له ومنهجا . ومن وهب فطرة فائقة وتذوقا أدبيا ونظرة كلية جامعة موحدة للكون وتمثلا للموجودات وخوضا فى أعمق أعماق دقائقها وميـلا دينيا صادقا وحدسا جوانيـا وجدانيا يؤمن بالتصوف كوسيلة من وسائل تذوقه وطريقة من طرائق تحققه وتعمقه .

هذه الحقيقة الهامة نود أن نقررها قبل أن نبدأ فى بيان الصلة بين التصوف والفلسفة فقد نجد فى التصوف منابع فلسفية ونظرات تحليلية منطقية بحتة وقد نجد فى الفلسفة منازع تصوفية تذرع الكون وتحيط بالوجود حتى ليكاد الأمر يختلط على الدارس المنقب فيتساءل : هل هو أمام فلسفة أم تصوف ؟ والواقع أن النتاج الإنسانى والحاصل النفسى لا يمكن أن تحدد له فواصل تفصل بعضه عن بعض بحيث تمنع من الخلط بين بعضه والبعض والآخر .

على هذا ننظر إلى التصوف والفلسفة فهما اتجاهان إنسانيان يتعلقان بذات الإنسان فى دأبها المستمر وقلقها الدائم وتساؤلها المتصل حتى تصل إلى المطلق وتستفسر عن سر الذات الألهية والكائنات الغيبية . ونحن لا نعنى النظر إلى التصوف على وجه العموم أى لا نقصد من كلمة التصوف ذلك

النوع الأفلوطيني أو الغنوصي أو الهندي أو المسيحي بل نقصد التصوف الإسلامي الذي نشأ في حضن الإسلام ونما وترعرع في ظل الحضارة الإسلامية منذ نشأتها في الجزيرة العربية حتى أنسكابها على وجه العالمين شمالا وشرقا وغربا حتى أثمرت ثمراتها وأينعت وتأكدت على مر الزمان . كما أننا نقصد من الفلسفة أيضاً الفلسفة الإسلامية التي نشأت مع التصوف في حضن الإسلام وتأثرت كما تأثر التصوف بمختلف التيارات الطارئة - فكرية أو مادية - بالرد عليها أو تبشر بها والتشبع بها ثم هضمها وإساغتها وإظهارها بمظهر إسلامي جديد

ومن الملحوظ في تاريخ الإسلام أن التصوف أسبق ظهوراً من الفلسفة ذلك لأن للتصوف ناحيتين : ناحية النظر وناحية العمل وكان العمل ملازما للإسلام منذ أفضى إلى معتقديه ومعتنقيه بفرائضة من صلاة وصوم وحج وما إلى ذلك من قربات تقربهم إلى الله ويؤيد ذلك قول الشعراني في طبقاته « علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين علموا بما علموه من أحكامها . . . فمن جعل علم التصوف علما مستقلا صـــدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق . . لكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية »

وهكذا نفهم من ذلك النص أن علم التصوف ظهر لأولياء الله منذ أن اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله واهتدوا بهديهما وعملوا بأوامرهما واجتنبوا نواهيهما فلما اخلصوا العمل تحققوا بالشريعة ومن الواضح الجلي أن المؤمنين الأول كانوا قدوة للمتجردين السالكين وبحرا اغترف منه العابدون الزاهدون وكان زعيمهم وإمامهم وقدوتهم وأسوتهم محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك يبدأ تاريخ التصوف في الإسلام منذ بدء الرسول تحنثه وتعبده ومنذ أن دعا إلى الإسلام ودخل فيه السابقون المقربون أي أن التصوف يرد في منابعه الأصلية إلى الرسول وخلفائه الراشدين .

أما الفلسفة فالأمر فيها جد مختلف بدأت بوارق منها تلمع فى أواخر القرن الثانى الهجرى ثم سطعت فى القرن الثالث عندما ترجمت المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية ويعلل الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى تأخر ظهور الفلسفة فى كتابه الفلسفة الإسلامية — وهو مجموعة محاضرات ألقاها بالإنجليزية فى جامعة وشنطن بقـــوله : « كانت الشعوب المنهزمة لاتزال تتحدث بلغتها الأصلية وقد ظلت زهاء قرن حتى استطاعت أن تتحدث باللغة العربية ولما تولى العباسيون مملكتهم فى بغداد وشجع خلفاؤهم العلم والثقافة وعقدوا اجتماعات لرجال العلم تشبه المنتديات الكبرى الفرنسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر و محوا بحرية كبيرة للتفكير المنطلق ضد القطعية التقليدية وظهر علمان جديدان فى ذلك الوقت أحدهما دينى والآخر عقلى وادعى كلاهما اعتماده على العقل وهما علم اللاهوت أو الكلام والفلسفة . »

وعندما دخلت الفلسفة فى نطاق الفكر الإسلامى أثرت فى الصوفية كما تأثرت هى نفسها بالتصوف ولعلنا لو تتبعنا هذه الفترة النشيطة من تاريخ الفكر الإسلامى وحللناها نستطيع أن نتبين الاتجاه العام للفلسفة الذى أثر فى التصوف وكذلك مقدار التأثير الصوفى على الفلسفة ، ومن المعروف أن جميع الباحثين يعترفون بأن طرافة الفلسفة الإسلامية إنما تبدو فى توفيقها بين الفلسفة والدين كما بدا ذلك فى تواليف الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد

يقول الدكتور الأهوانى « وهذه الدراسة جعلت الفلاسفة يفكرون فى مشاكل الموجود والواحد والوجود والجوهر وهى المشاكل التى تشكل المسائل الرئيسية فى الميتافزيقا . فالله هو أول موجود وأول حقيقة وأول علة والموجود والضرورى الحقيقى ومن هنا كانت مشكلتا الصلة بين الله والعالم من ناحية وبين الله والإنسان من ناحية أخرى من أهم المشاكل التى درسها الفلاسفة الإسلاميون والمشكلة الأولى ميتافيزيقية بحته وأما الثانية فهى نفسية أو خاصة بنظرية المعرفة لصلتها بمشكلة العقل فالخصائص التى تجمع بين الفلسفة والتصوف يمكن أن نجدها فى بحث الفلاسفة عن حل مشكلة الدين وصلته بالعقل أو بالفلسفة وقد حاول الفلاسفة أن يحلوا هذا الاشكال فى نطاق الإسلام وبينوا أن الفلسفة (الحكمة) أخت الشريعة وتوأمتها الرضيعة وهذا الحل يشبه

تماما حل الصوفية الذين جعلوا الحقيقة مشتقة من الشريعة أو درجة تأتى بعد فهم الشريعة والعمل بمقتضاها .

وليس هذا فقط بل إن المدن الفاضلة التى طالب بها الفلاسفة تشترط فى الحاكم خصائص تتطلبها الصوفية مع اختلاف الوسيلة فى كل فوسيلة الفيلسوف العقل ويعتمد التفاضل عند الفلاسفة على مقدار حصول ملكة الادراك العقلى والقدرة على التوغل فيها بينما يتوقف التفاضل عند الصوفية على مقدار ذوبان الخلق فى الحق وعلى اختلاف الناس فى مواجيدهم وأذواقهم ودرجات وصولهم .

ويمكن لنا أن نجد فى قصة حى ابن يقظان منابع صوفية حقة فقد تبين لحى أن الغاية التى يجب أن يبتغيها من عمله هى أن يلتمس الواحد فى كل شىء وأن يتصل بالموجود المطلق القائم بذاته مما جعل دى بور يعلق على ذلك بقوله « ابن طفيل يعنى عناية خاصة بسيرة حى العملية وهنا تحل محل العبادات التى فرضتها الشريعة الإسلامية الرياضات الصوفية على صورتها التى كانت لاتزال متبعة بين أهل الطرق فى الشرق » .

وهكذا كلما أوغلنا فى الدراسة التاريخية نجد أن التصوف والفلسفة وإن بدآ مختلفين إلا أن الفلاسفة والصوفية أتحدوا فى النهاية نحو البحث عن الحكمة الاشراقية كما نجد ذلك عند ابن باجه وابن طفيل من الفلاسفة وكما نجده عند ابن عربى من الصوفية .

وليس هذا فقط بل إن التصوف والفلسفة يكادان يتفقان فى الغاية التى يرجونها فالغاية من الفلسفة هى السعادة التى تتحقق بمجرد اتصال الحكيم بالله وكذلك الغاية من التصوف هى السعادة إلا أن طريقة الحكماء تختلف عن طريق الصوفية فى أن الأولى - كما يقول طاش كبرى زاده فى مفتاح السعادة - تبتدىء من طريق العلم إلى العرفان ومن طريق الشهادة إلى الغيب وثانيتهما « ما يتجلى للصوفى بالجذبة الالهية فيبتدىء من الغيب ثم ينكشف له عالم الشهادة » .

ومن هنا نجد أن الصوفية المتحققين تحرجوا من وصف الفلاسفة بالكفر والزندقة يقول الشعرانى « كان سيدى أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : كثير من كلام الصوفية لايتمشى ظاهره إلا على قواعد المعتزلة والفلاسفة فالعاقل لا يبادر إلى الانكار بمجرد عزو ذلك الكلام إليهم بل ينظر ويتأمل فى أدلتهم

التى استندوا إليها فما كل ماقاله الفلاسفة والمعتزلة فى كتبهم يكون باطلا وإنما حذر بعضهم عن مطالعة كتبهم خوفا من حصول شبهة تقع فى قلب الناظر ولا سيما أهل الانكار والدعاوى » .

ولكن يجرنا هذا الختام إلى واقعة لا تغيب عن الذهن أبدا وهى ثورة الغزالى بالفلاسفة ونعيه عليهم شططهم وتكفيره إياهم فى عشرين مسألة مما يوحى إلى ذهن البحاث أن هناك نفوزا دائما عند الصوفية من الفلسفة . فإلى مقال آخر - إن شاء الله تعالى - نبين فيه رأى الغزالى فى الفلسفة والله المستعان ؟

من صفات التصوف

يقول تاج العلماء الكلاباذى فى التعرف واصفا لشمائل الصوفية :

« وهم اشفق الناس على خلق الله ، من فصيح واعجم ، وأبذل الناس بما فى أيديهم ، وأزهدهم عما فى أيدى الناس ، وأشدهم إعراضا عن الدنيا ، وأكثرهم طلبا للسنة والآثار ، وأحرصهم على اتباعها » .